٢ - المعانى الافلاطونية عند المعتزلة *

للاستاذ محمود الخضيرى
عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس

علم الكلام عند المسيحيين

وقد فعل المسيحيون - على كل حال - أكثر مما فعل غيرهم من أهل الديانات الأخرى فى تعريف علماء الدين المسلمين بالفلسفة الاغريقية قبل عهد النقل والترجمة ؛ ذلك أننا نعرف أن علماء الدين المسيحيين فى ذلك العصر كانوا على خبرة كبيرة بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وقد عنى المسلمون أكبر العناية بمجادلاتهم فيما بينهم حول اتحاد الطبيعتين : الالهية والانسانية ، فى شخص المسيح ، وذلك لأن القرآن تكلم فى هذا الشأن ؛ ويحدثنا مؤرخو الآراء الدينية من المسلمين عن اليعاقبة الذين ذهبوا إلى أن الله والانسان هما طبيعة واحدة فى شخص المسيح ، وعن النسطوريين الذين قالوا بالتمييز بين الطبيعتين ، وعن الملكية وهم التابعون لكنيسة الدولة الذين فرقوا بين الكلمة (أقنوم العلم) ، وروح القدس (أقنوم الحياة)(١) ؛ وذلك مضاف بالطبع إلى الجوهر ليتم التثليث ، ولم يرض هذا بحال من الأحوال الموحدين المسلمين (٢) ، ولكنهم استخلصوا من تلك المناظرات ما تضمنتها من مقدمات وعناصر فلسفية يصلح استخدامها كمنهج على العموم .

وقد أشار الشهرستانى إلى وجه شبه بين قول العلاف (٢٣٥ هـ — ٨٤٩م) أحد شيوخ المعتزلة فى الصفات الالهية ، وبين التصور المسيحى للأقانيم ؛ وذلك لأن العلاف يقول : « إن الله عالم بعلم وعلمه ذاته ، قادر بقدرة وقدرته ذاته ، حى بحياة وحياته ذاته ؛ وإنما اقتبس هذا الرأى من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معانى قائمة بذاته ، بل هى ذاته ... والفرق بين قول القائل عالم بذاته لا بعلم ، وبين القائل عالم بعلم هو ذاته ، أن الأول نفى الصفة ، والثانى إثبات ذات هو بعينه صفة ، وإثبات صفة هى بعينها ذات ؛ وإذ أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوهاً للذات ، فهى بعينها أقانيم النصارى أو أحوال أبى هاشم (٣) » .

(*) نشرنا الجزء الاول من هذا البحث فى عدد أغسطس سنة ١٩٣٢ من « المعرفة » فليرجع اليه القارىء .

(١) الشهرستانى (الملل والنحل) ج ٢ ص ٤٩ — ٥٧ من طبعة عتيقة . القاهرة ١٣١٧ .

(٢) راجع على الخصوص : ابن الباقلانى (٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م) كتاب التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة . مخطوط فى المكتبة الاهلية بباريس : القسم العربى رقم ٦٠٩٠ (الجيارات الجديدة) صفحة ٢٤ وجهاً الى ص ٣١ وجهاً .

(٣) الشهرستانى الكتاب المذكور ج ١ ص ٥٧ .

وكذلك كتب الشهرستانى عن النسطورية فى معرض كلامه عن الفرق المسيحية : « النسطورية أصحاب نسطور الحكيم الذى ظهر فى زمان المأمون (١) ، وتصرف فى الأناجيل بحكم رأيه وإضافته إليها إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة ؛ قال : إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة ، وهذه الأقانيم ليست زائدة عن الذات ، ولا هى هو ؛ واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام ، لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية ، ولا على طريق الظهورية كما قالت اليعقوبية ؛ ولكن كاشراق الشمس فى كوة ، أو على بلور ، أو كظهور النقش فى الخاتم ؛ وأشبه المذاهب بمذهب نسطور فى الأقانيم أحوال أبى هاشم من المعتزلة ، فانه يثبت خواص مختلفة لشىء واحد » (٢) .

والظاهر أن الشهرستانى يحاول أن يقتصر على الاشارة إلى بعض وجوه الشبه بين أقوال العلاف وأبى هاشم وبين بعض التصورات المسيحية ؛ ومن المحتمل أنه يتعمد هذه المقارنة (٣) ؛ على أن الذى نستطيع أن نثق منه هو أن الشهرستانى نفسه يثبت لنا علاقة تشابه بين أقوال كبيرين من شيوخ المعتزلة ، وبين مذهب مسيحى نشأ قبيل ظهور الاسلام وظل يدرس وينتشر فى الأوساط المسيحية التى كان يسود فيها المسلمون .

ولننتقل الآن لننظر نظرة عاجلة فى نظرية موسى بن ميمون (مات سنة ١٢٠٤ م) الذى يذهب إلى أن المعتزلة أخذوا كلامهم عن متكلمى النصارى ممن سبقوهم فى الزمن ، أو عاصروهم .

يقول ابن ميمون : « إن كل ما قاله المسلمون فى الكلام معتزلة كانوا أو أشعرية ، إنما هو آراء مبنية على مقدمات مأخوذة من كتب اليونانيين والسريانيين الذين راموا مخالفة آراء الفلاسفة ودحض أقاويلهم ؛ وكان سبب ذلك أنه لما عمت الملة النصرانية تلك الملل ودعوى النصارى ما قد علم ؛ وكانت آراء الفلاسفة شائعة فى الملل ، ومنهم نشأت الفلسفة ، ونشأ ملوك يحمون الدين ، رأوا (٤) علماء تلك الأعصار من اليونان والسريان أن هذه دعاوى تناقضها الآراء الفلسفية مناقضة عظيمة بينة ، فنشأ فيهم هذا علم الكلام (٥) ، وابتدأوا ليثبتوا مقدمات نافعة لهم فى اعتقادهم ، ويردوا على تلك الآراء التى تحد قواعد شريعتهم ،

(١) الصحيح أن نسطور Nestorius مات قبل ظهور الاسلام (٢) الكتاب المذكور ج ٢ ص ٥٢ و ٥٣ .

(٣) يقول الاستاذ كرا دى فو Carra de Vaux تعليقاً على مقارنة الشهرستانى بين قول العلاف فى الصفات ، وبين قول المسيحيين بالاقانيم : « لا تبدو هذه المقارنة مرضية جداً » ابن سينا Avicenne باريس سنة ١٩٠٠ ص ٢١ . (٤) كذا فى النص ، والصواب « رأى » . (٥) كذا فى الاصل ، وهذه الصيغة من خصائص لغة ابن ميمون ، وربما كانت من خصائص اللغة العربية الدارجة فى مصر فى عصره ، والصحيح - فى الكلام هذا - .

فلما جاءت ملة الاسلام ونقلت إليهم (١) كتب الفلاسفة ، نقلت إليهم أيضاً تلك الردود التى ألفت على كتب الفلاسفة ، فوجدوا كلام يحيى النحوى وابن عدى وغيرهما فى هذه المعانى فتمسكوا به ، وظفروا بمطلب عظيم بحسب رأيهم ... الخ » (٢) .

ويحيى النحوى الذى يذكره ابن ميمون هو يحيى فيلوبونوس الذى عاش فى الاسكندرية فى القرن السابع للميلاد ؛ كما أن يحيى بن عدى هو أحد الفلاسفة المسيحيين ، ومن المترجمين إلى اللغة العربية ، توفى عام ٩٧٥ ميلادية (٣٦٥ هجرية) ، وعلى ذلك فهو متأخر عن المعتزلة الذين سنتولى دراستهم ؛ وإذن فمن المستحيل أن يكون له أى تأثير فيهم ، بل نحن نعتقد أنه لم يكن له تأثير قط على الاعتزال وعلم الكلام على العموم ، ويؤيدنا فى هذه الدعوى ما جاء فى كلام أبى سليمان السجستانى المنطقى (٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) ، حيث يتضح موقف يحيى بالنسبة إلى المتكلمين ، قال أبو سليمان : « وكان شيخنا يحيى يقول : إنى لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس : نحن المتكلمون ، ونحن أرباب الكلام ، والكلام لنا ، بنا كثر وانتشر ، وصح وظهر ! كأن سائر الناس لا يتكلمون ، أو ليسوا أهل الكلام؟ لعلهم عند المتكلمين خرس أو سكوت ! أما يتكلم يا قوم الفقيه ، والنحوى ، والطبيب ، والمهندس ، والمنطقى ، والمنجم ، والطبيعى ، والالهى ، والحديثى ، والصوفى ؟ » (٣) . وفى نهاية مقالته يعارض بين « كلام » المتكلمين وجدل أرسطوطاليس .

وعلى كل حال فإن ابن ميمون لم يقف عند هذا القول ، إذ أنه زاد على ذلك أن المتكلمين المسلمين « اختاروا أيضاً من آراء الفلاسفة المتقدمين كل ما رآه المختار أنه نافع له ، وإن كان الفلاسفة المتأخرون قد برهنوا بطلانه كالجزء والخلاء ، ورأوا أن هذه أمور مشتركة ومقدمات يضطر إليها كل صاحب شريعة ؛ ثم اتسع الكلام ، وانحطوا إلى طرق أخرى عجيبة ما ألم بها قط المتكلمون من يونان وغيرهم ، لأن أولئك كانوا على قرب من الفلاسفة ؛ ثم — أيضاً — جاءت فى الاسلام أقاويل شرعية خصيصة بهم (٤) احتاجوا ضرورة أن ينصروها ، ووقع بينهم اختلاف فى ذلك ، فأثبتت كل فرقة منهم مقدمات نافعة لها فى نصرة رأيها (٥) » .

ويلاحظ أن ابن ميمون يواجه المعتزلة والمتكلمين كأنهم أهل مذهب فلسفى واحد تولوا

---

(١) كذا فى الاصل والمقصود « الى المسلمين » ، وهذا أيضاً من أخطاء ابن ميمون المادية .

(٢) دلالة الحائرين طبعة مونك Munk المجلد الاول (من النص العربى — العبرى) ص ٩٤ ظهراً .

(٣) مقابسات أبى حيان التوحيدى ص ٢٢١ ، ومما يؤيد دعوانا أيضاً ما نقله ابن القفطى عن يحيى بن عدى وأوردناه فى الفصل الاول من هذا البحث حيث يعترف أن المتكلمين لا يفهمون عبارته ، كما أنه لا يفهم اصطلاحهم . (٤) كذا والمقصود « خصيصة بالمسلمين » .

(٥) دلالة الحائرين ج ١ ص ٩٤ ظهراً و ٩٥ وجهاً .

الدفاع عن الدين بحجج فلسفية ، وهذا ما جعل ناشره (سلمون مونك S. Munk) يجمعهم تحت عنوان واحد ، إذ سماهم جميعاً « أصحاب الجزء الذى لا يتجزأ »(١) ، ولكننا سنبين فيما بعد أن القول بالجزء الذى لا يتجزأ لا يعم المعتزلة ، وليس من خصائصهم .

ونحن نعتقد أنه إذا كان المعتزلة ـ ولا سيما هؤلاء الذين سنتولى دراستهم ـ مدينين بشىء إلى رجال الدين المسيحيين ، فذلك بما أخذوه عنهم من فلسفة الاغريق ، وقد تعلم المعتزلة عنهم شيئاً كثيراً منها بالرواية الشفوية قبل عهد الترجمة (٢) ، ولكن لما كانت الفلسفة التى يشتمل عليها كلام المعتزلة تمتاز بصفات خاصة ، وتختلف اختلافاً كبيراً عن فلسفة رجال الدين المسيحيين الذين عاصروهم ؛ وإذن فلن لنا الحق فى أن نؤكد أن مصادرهم لم تكن مستفادة من مصدر واحد .

الأصل التاريخى للمعتزلة

يرى ابن المرتضى اليزيدى (٨٤٠ هـ — ١٤٣٧ م) أن المعتزلة هم أهل الحق فى الاسلام ، إذ أنهم « لم يخالفوا الاجماع ، بل عملوا بالجمع عليه فى الصدر الأول ، ورفضوا المحدثات المبتدعة » ؛ ثم يذكر ابن المرتضى الحديث المشهور المنسوب إلى النبى الذى يقول ما معناه : إن اليهود انقسموا إلى إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى إلى اثنتين وسبعين ، وسيفترق المسلمون إلى ثلاث وسبعين فرقة واحدة منها ناجية ؛ وهو يذكر هذا الحديث على روايتين لا تختلفان فى المعنى ، ولكن لم ترد واحدة منهما عن طريق المؤرخين والرواة من خصوم المعتزلة ، أولى هاتين الروايتين : « ستفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة ، أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة » ، والرواية الثانية : « ستفترق أمتى على فرق ، خيرها وأبرها المعتزلة »(٣) ؛ ويقسم ابن المرتضى المعتزلة إلى اثنتى عشرة طبقة : الأولى منها مؤلفة من الخلفاء الأربعة وعبد الله ابن عباس .

ونحن نرى فى ذلك مجرد دفاع عن المعتزلة ، إذ أن مثل هذا القول يستبعد كل أصل أجنبى

---

(١) خليط من الفلسفة اليهودية والعربية Mélanges de Philosophie juive et arabe باريس سنة ١٨٥٩ ص ٣٢٨ . (٢) انظر جولدسيهر Goldziher الفلسفة الاسلامية واليهودية فى العصور الوسطى فى مجموعة ثقافة العصر الحاضر Die Kultur der Gegenwart القسم الأول الجزء الخامس لايبسيك وبرلين سنة ١٩١٣ ص ٣٠٢ . (٣) باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والامل فى شرح كتاب الملل والنحل لأحمد بن يحيى المرتضى طبعة ث. و. ارنولد ، لايبسك وحيدر آباد الدكن سنة ١٩٠٢ ص ٢ — ١ .

لمذاهبهم ، ونحن نبحث الآن لديهم عما لم يوجد عند الجيل الأول من المسلمين، ولا سيما ما لا يمكن فهمه دون وصله بالتيار الأفلاطوني .

ومن ناحية أخرى ، فإن أكثر المؤلفين الذين بحثوا عن أصل المعتزلة اقتصروا على إرجاعه إلى أصل التسمية واشتقاقها ، وقد بحث أكثر المؤلفين المسلمين الذين عنوا بهذه المسألة عن حادثة تاريخية لتعليل نشأة الاعتزال ؛ ومن التعليلات الكثيرة ما ذهب إليه أبو الحسين الملطي الشافعي (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ — ٩٨٧ م) إذ قال : « وهم سموا أنفسهم معتزلة ؛ وذلك عند ما بايع الحسن بن علي عليه السلام معاوية وسلم إليه الأمر، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس — وكانوا من أصحاب علي — وازموا منازلهم ومساجدهم ، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة ، فسموا بذلك معتزلة » (١) ؛ وعلى هذا النحو تعلل نشأة الفرقة بعلة سياسية كما تعلل كل الاختلافات التي حدثت في الإسلام قبل ذلك منذ وفاة النبي .

ثم إن هنالك القصة المشهورة التي يراد بها إثبات أن واصل بن عطاء (١٠٣ هـ — ٧٢١ م) هو أول من سمي معتزلا، وذلك لأنه قال في مجلس أستاذه الحسن البصري (١١٠ هـ — ٧٢٨م) إن مرتكب الكبيرة لا مؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، ثم قام «واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد» ليدافع عن حجته أمام جماعة من أصحاب الحسن ، « فسمي هو وأصحابه معتزلة » (٢) .

ولا يوافق الأستاذ جولد سيهر على هذا التعليل المشهور ، ويرى أن الاعتزال نشأ عن الميل إلى العبادة والتقوى ، وهو يقول ما خلاصته : إن المعتزلة كانوا رجالا أتقياء متقشفين ؛ وإن كلمة معتزلة تدل على زاهدين في الدنيا ، ضاربي الصفح عن ملذات هذه الأرض (٣) ؛ وكذلك نبه الأستاذ جولدسيهر في كتاب آخر له على أن كلمة «معتزلة» وردت في ترجمة سبطورية قديمة للعهد الجديد ، يرجع تاريخها إلى عام ١٢٣٣ بعد الميلاد للدلالة على « الفريسيين » ، (وهذه ترجمة حرفية في الواقع (٤)) ؛ ولا يريد الأستاذ جولد سيهر أن يقول بهذا بأصل

---

(١) نص مقتبس من مقدمة كتاب «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» تأليف ابن عساكر (٥٧١ هـ — ١١٧٥ م) ص ١٠ في الهامش . دمشق سنة ١٣٤٧ هـ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ، الطبعة الأكسفورد ج ١ ص ٥٥ .

(٣) الديانة الإسلامية واليهودية في العصور الوسطى ص ٣٠٢ .

(٤) انظر محاضرات عن الإسلام Vorlesungen uber den Islam ظهر في هيدلبرج سنة ١٩١٠ ، ولهذا الكتاب ترجمة فرنسية بعنوان أصل الإسلام وشريعته Le pogme et la loi de l'Islam باريس سنة ١٩٢٠ ص ٨٠ و ٢٠٦ .

يهودى أو مسيحى للكلمة، وإن كان لا ينكر التأثير المسيحى على نزعة الرهبنة فى الاسلام(١). أما الأستاذ أحمد أمين فانه لا يستبعد أن يكون هذا اللفظ قد أطلقه على المعتزلة قوم من أسلموا من اليهود لما رأوه من الشبه فى القول بالقدر بين معتزلة الاسلام والفريسيين اليهود الذين كانوا يقولون أيضاً بحرية الارادة الانسانية (٢) .

ونحن لا نهتم هنا ـ بوجه خاص ـ بتاريخ الكلمة ؛ إذ أن هذا يشط بنا عن موضوعنا بعض الشطط ؛ ولكننا نقول ـ مع ذلك ـ إنه إذا كان واصل بن عطاء أول من سمى معتزلا فانه ليس من أجل هذا مؤسس الفرقة ، إذ أنها وجدت قبله وكان اسمها « القدرية » ، وإنما هو الذى أحدث فى مبادئها القول بالمنزلة بين المنزلتين ؛ وكذلك فان ابن المرتضى يعتبره من أهل الطبقة الرابعة من المعتزلة ، ونحن نعتبر أن المعتزلة بدأوا ممثلين للتسامح (٣) ، والثقة فى العقل بين رجال الدين فى الاسلام ، وقد بدأت فرقتهم بنفى الجبر والقول بحرية الارادة ـ كما سنشرح ذلك عن قريب ـ ؛ ثم أخذت توسع فى مقالاتها وتهذبها على حسب اتصال شيوخها بالثقافة الأجنبية ؛ وسنعالج فى المقالات التالية نشأة مذاهبهم وتطورها . ؟

محمود الخضيرى

---

(١) وكذلك يسلم الاستاذ مكس هرتن Horten بتأثير الرهبنة المسيحية على الاعتزال ، على أنه يضع هذا التأثير بجوار تأثيرات أخرى سياسية ؛ انظر كتابه « المذاهب الفلسفية للمتكلمين فى الاسلام » ص ١٠٩ ـ ١١٠

(٢) فجر الاسلام ، القاهرة سنة ١٩٢٨ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥

(٣) وكذلك يسلم أكثر مؤرخى الآراء الاسلامية من شيلدرز Schmolders ورينان Renan حتى مكس هرتن Horten ، الا أن الاستاذ جولد سيهر Goldziher يأبى أن يصفهم بصفة التسامح وحرية الفكر بدعوى أنهم كانوا متعصبين ، وانهم كانوا أصحاب أصول لا يتجاوزون عنها ولا يفرطون فيها ، وذلك لأن شأن التعصب أن لا ينفصل عن التشبث بالاصول ؛ انظر كتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام » واليهودية فى العصور الوسطى » ص ٣٠٣ ، ومحاضرات عن الاسلام مع الترجمة الفرنسية ص ٩٦ ـ ٩٨ . ونحن يؤسف له أن المستشرق الكبير لا يقيم دعواه الا على مثال واحد للتعصب عثر عليه فى أقوال الغزالى ؛ أما الاستاذ هرتن فانه يلاحظ بدقة اليهود بأنهم كانوا متعصبين فيما يختص بالعمل بأحرار الفكر فيما يختص بالنظر ؛ راجع « المذاهب الفلسفية للمتكلمين فى الاسلام » ص ١١١ فى الهامش .

المعرفة فى تونس

تطلب « المعرفة » فى تونس من المكتبة العلمية لصاحبها ووكيلينا : السيد محمد الأمين والسيد طاهر ، بنهج الكتبية رقم ١٢

وتطلب أيضاً من مكتبة الاستقامة لصاحبها السيد محمد بن الحاج صالح التميمى .